على شواطئ أيّامه

في أيّامه عتبات لا بُدّ من إطلالةٍ عليها..

لمحات نذكرها في غاية الايجاز، يأتي تفصيلٌ في معظمها طيّ الفصول اللاحقة:

قصد مكّة حاجّاً في سنة ٦٩١هـ.

ومضت أيّامه هادئةً، ممدوح السيرة، عالي الصيت؛ مدرّساً، وخطيباً، ومصنّفاً حتّى كانت سنة ٦٩٨هـ، فتفجّرت عليه براكين الغضب في دمشق والشام، فتابعتها القاهرة والإسكندرية، غضبٌ قاده فقهاء المذاهب الثلاثة وشيوخ الصوفيّة الّذين كانت لهم معه جولات من الصراع، ونزاعات لم تخمد، إلّا أنّها لم تبلغ ذروتها إلّا فيما بعد..

كلّ ذلك كان إثر خطبةٍ ألقاها على المنبر تكلّم فيها في ذات الله تعالى وصفاته، فعمّق البحث، وتوسّع وأطنب، فدخل في البحث طرقاً لم يسلكها الأوّلون هيبةً وورعاً وتمسّكاً بحدود الشريعة التي تنهى عن الخوض في ذات الله وصفاته تعالى شأنه.

ثمّ زاد على ذلك ما أدخله من براهين ناصر فيها عقيدة القائلين بالتجسيم، الّذين نسبوا إلى الله تعالى صفات هي من صفات الأجسام، كالوجود في جهةٍ واحدة، والاستواء على العرش حقيقةً، والحركة والانتقال، وأنّ الوجه والأيدي

والأعين والأرجل المذكورة في بعض الآيات والأحاديث إنّما هي على الحقيقة دون المجاز!

تلك أوّل ثائرة كبيرة تثور عليه، ولكن سرعان ما حسمها أمير دمشق لصالحه. ولكنّ جمرها بقي تحت الرماد، حتّى تأجّج لظاهُ في فرصةٍ سَنَحت في سنة ٧٠٥هـ. فاستدعي فيها إلى مصر، إلى القضاء، وسُجن هناك سنةً ونصف، ثمّ أُفرج عنه، وأُمر بالإقامة في الإسكندرية، فأمضى فيها ثمانية أشهر في برج على البحر.

وفي الإسكندرية ركّز حملاته على الصوفيّة، فوقعت هناك فتنٌ كثيرة مدّة إقامته.

وفي سنة ٧٠٨هـ استدعاه السلطان الناصر إلى القاهرة إثر عودته إلى السلطنة[1]، فأكرمه وقدّمه وأسند إليه التدريس في المدرسة التي كان السلطان قد أنشأها هناك.

وفي رحلته هذه كان يصحبه أخوه شرف الدين، وكان على اتّصال بأصحابه في دمشق يكاتبهم ويكاتبونه، ويبعثون إليه ما يطلبه من الكتب، كما راسل الأمير (نائب دمشق) وأطلعه على أحواله وما جرى معه هناك.

وعاد إلى دمشق سنة ٧١٢هـ.

وقبل ذلك كان له في دمشق تاريخ آخر:

ففي سنة ٦٩٩هـ كانت له مشاركة في التصدّي للغزو التتري الذي هُزمت على

---

(١) راجع (عصره السياسي) من هذا الكتاب.

أثره جيوش المسلمين، واحتل التتار عدّة مدن شاميّة، وانسحب السلطان إلى مصر.

وفي العام التالي، وقد قاد السلطان جيوشه من جديد للثأر، توجّه إليه الشيخ وصحبه في تلك الغزوة مع كثير من كبار العلماء، وكان للشيخ عند السلطان منزلةٌ، فخطب الجيش وحثّهم على الجهاد، وشبّه هزيمتهم السابقة بمعركة أُحد، وغزوتهم هذه بمعركة الخندق! وزرع في قلوبهم الثقة بالنصر، فلمّا كان النصر حليفهم، عظمت مكانته عند السلطان، فقوي على خصومه من الصوفيّة خاصّةً، فضعفوا عن مواجهته، في حين كان يشدّد عليهم حملاته قولاً وعملاً.

وفي سنة ٧٠٤هـ كان السلطان طوع فتواه في محاربة أهل الجبل، فلمّا عاد الجيش منها منتصراً كتب إلى السلطان رسالةً يهنئه بالنصر، وممّا قاله فيها:

(من الداعي أحمد بن تيميّة إلى سلطان المسلمين..

أمّا بعد، فقد صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعزّ جُنده، وهزم الأحزاب وحده، وأنعم الله على السلطان، وعلى المؤمنين في دولته نِعَماً لم تُعهد في القرون الخالية!

وجُدِّدَ الإسلام في أيّامه تجديداً بانت فضيلته على الدول الماضية! وتحقّق في ولايته خبر الصادق المصدوق، أفضل الأوّلين والآخرين، الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رؤوس المئين[1]!!

وذلك أنّ السلطان أتمّ الله نعمته، وحصل للأُمّة بيُمن ولايته، وحُسن نيّته، وصحّة إسلامه وعقيدته، وبركة إيمانه ومعرفته، وفضل همّته وشجاعته، وثمرة تعظيمه للدين وشرعته، ونتيجة اتّباعه لكتاب الله وحكمته، ما هو شبيه بما كان

---

(١) يريد بذلك الحديث المروي: «إنّ الله يبعث لهذه الأُمّة على رأس كلّ مئة سنة من يجدّد لها دينها».

يجري في أيام الخلفاء الراشدين...)(١).

وفي سنة ٧١٦هـ توفّيت والدته.

وبعد أربع سنين من هذا التاريخ في سنة ٧٢٠هـ ثارت عليه ثائرة دمشق إثر مسائل في الطلاق أفتى فيها بخلاف المذاهب الأربعة، واستدعي للقضاء ومُنع من الإفتاء، وسجن خمسة أشهر ثمّ أفرج عنه بأمر من السلطان، وسكن الأمر.

وتجدّدت الفتنة على أشدّها في سنة ٧٢٦هـ على أثر تجديده الكلام في فتواه بتحريم شدّ الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، وعثروا له على كتاب كتبه في هذه المسألة منذ سنة ٧١٠هـ، وكان له كلام متقدّم على هذا أيضاً ذكره في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم).

وكثر الكلام والتشنيع عليه، وحصلت فتنة طار شررها في الآفاق، ورفعوا ذلك إلى السلطان فتردّد في أمره، ثمّ خفّف عليه شيئاً من شدّة الأمر انتصار علماء بغداد له، فبعثوا كُتباً بموافقة رأيه، منهم: ابن الكتبي الشافعي، ومحمّد بن عبدالرحمن البغدادي المالكي شيخ المالكيّة بالمدرسة المستنصريّة، وعبدالمؤمن بن عبدالحقّ الخطيب، وجمال الدين ابن البقّي الحنبلي. كما كتب بعض علماء دمشق في نصرته أيضاً، منهم أبو عمرو بن أبي الوليد المالكي، وآخرون.

وبين هذا وذاك رأى السلطان أن ينقل الشيخ إلى قلعة دمشق إخماداً للفتنة، فأقام معه في القلعة أخوه في قاعة حسَنة أُعدّت له، ورسم له السلطان بما يقوم بكفايته من الأموال.

وهناك تفرّغ للكتابة، وإلى جنبه ما يحتاجه من الكتب، فكتب في الردّ على

(١) العقود الدرية: ١٨٢ ـ ١٨٣.

خصومه من القضاة المالكيّة والشافعيّة، وكتب في التفسير أيضاً، كما كتب في مراسلة أنصاره كثيراً، وكانت تأتيه كتبهم، فيغسلها بعد قراءتها، وقد كتب في ذلك بخطّه إلى بعضهم فقال: (الأوراق التي فيها جواباتكم غُسِلَت).

ثمّ أُخرجت جميع كتبه من عنده، فرأى في ذلك انتصاراً له لأنّه كان سبباً في نشرها واطّلاع الناس عليها بعد أن كانت حبيسةً معه.

بقي بعد ذلك أياماً، مرض بعدها مرضاً شديداً امتدّ معه عشرين يوماً فتوفّي على أثره ليلة الاثنين، عشرين من ذي القعدة، سنة ثمان وعشرين وسبعمئة للهجرة، وهذا التاريخ يوافق ٢٦ ـ ٢٧ من الشهر التاسع من سنة ١٣٢٨ للميلاد.

وشهد جنازته خلق كثير، قُدِّر بمئتي ألف رجل وخمسة عشر ألف امرأة، وازدحم محبّوه على النعش يُلقون عليه مناديلهم وعمائمهم للتبرّك به، وقيل: إنّ منهم من مزّق شيئاً من كفنه، وأخذوا ماء غُسله، كلّ ذلك للتبرّك به..

فسبحان الله! أُولئك هم الذين احتفّوا حوله في محاربة الصوفيّة على ما هو أدنى من هذا من التبرّك بقبور الموتى وآثارهم صاروا اليوم يفعلون ما لم يفعله الصوفيّة مع مشايخهم!

ومن عجائب الأيّام أيضاً أن يصير مدفنه في مقابر الصوفيّة، خصومه مدى حياته وخصومه بعد موته أيضاً!

ومن غريب ما ذكره صاحب (العقود الدريّة)[1] وهو يذكر وفاة الشيخ ابن تيميّة، قوله: قال القاضي أبو بكر محمّد بن عبدالباقي بن محمّد البزّار: سمعتُ المظفّر

---

(١) هو الشيخ الحافظ المحقّق محمّد بن أحمد بن عبدالهادي، ابن قدامة الحنبلي، المولود سنة ٧٠٤ هـ، والمتوفّى سنة ٧٤٤ هـ، وهو من تلامذة الشيخ ابن تيميّة.

هَنّاد بن إبراهيم النسفي يقول: سمعت أبا القاسم عبدالواحد بن عبدالسلام بن الواثق يقول: سمعتُ بعض الصالحين يقول:

رُئي بعض الصالحين في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك ؟

قال: غفر لي.

قيل له: مَن وجدتَ أكثر أهل الجنّة ؟

قال: أصحاب الشافعي.

فقيل: فأين أصحاب أحمد بن حنبل ؟

قال: سألتني عن أكثر أهل الجنة، ما سألتني عن أعلى أهل الجنّة ! أصحاب أحمد أعلى أهل الجنّة، وأصحاب الشافعي أكثر أهل الجنّة[1] !

شرّ البليّة ما يُضحِك، وشرّ منه حين يجري هذا المُضحك على ألسنة كبار الفقهاء والمحقّقين، وأيّ فقهاء، وأي محقّقين ؟! إنّهم الّذين سخروا من أحاديث الصوفيّة في أمثال هذا، ثمّ يصرخون ويملأون الدنيا صراخاً زاعمين أنّهم ـ دون سواهم ـ المتمسّكون بعقيدة السّلَف شعرةً بشعرة !

فمَن إذن للبسطاء والمساكين ؟! اللّهمّ كما رحمت السّلَف الصالح فارحم الخَلَف التائه..

إذن عاش الشيخ ابن تيميّة نحو ثمانٍ وستّين سنةً، ثمّ مات فرداً، لم يتزوّج مدّة حياته. ذلك الأمر الذي بقي سرّاً مكتوماً في حياته الشخصيّة.

---

(١) العقود الدرية: ٢٩٣.